الشبلي

للاستاذ طه عبد الباقي سرور

قال له صاحبه وهو يحذره :

إنك فى الذروة العليا من قومك جاها ومالا ومكانة وحسبا ، ولقد حباك حظ ماظفر به سواك ، فأنت حاجب أمير المؤمنين الخليفة الموفق ، وهى مكانة مرموقة لاتعلوها مكانة فى الدولة ، وأبوك حاجب الحجاب ، وحامل الأختام ، وأسرتك إليها قيادة الخيل وألوية الحرب ، وأنت مع هذا وذاك فى رونق شبابك ، وزهرة عمرك ، وفجر آمالك ، فكيف سعى هذا الأمر إلى قلبك ؟ وكيف انبثقت فى دنياك تلك الخيالات التى صرفتك عن أملك ومجدك ! وإنى لأخشى إذا طال أمرك أن يقصيك الخليفة عن عمالك .

ورفع الشبلى رأسه ، فاذا جبين وضاء ، ووجه مشرق بسام ، وطلعة فيها كبرياء عنصره التركى وعزة أسرته ذات المجد الحربى .

وقال لصاحبه وهو يربت على كتفه . لقد حدثتنى حديث الدنيا ، ولكن فى أعماقى كلمات تناجينى وتناغينى وتوسوس لى بحديث عذب حلو عن عالم آخر جميل أروع مايكون الجمال ، بهى أسمى مايكون البهاء .

عالم فيه أنوار وأسرار ، ومايتذوقه الحس ، وتهنأ به النفس ، ويعجز عن تجليته البيان والبرهان .

عالم لاأبالى وأنا أطرق أبوابه بخليفتك الذى تبددنى به وتتندرنى ، بل تذكرنى بعملى الذى أتولاه ، وقدرته على تنجيتى عنه .

ألا فلتعلم ياصاحبي أنني تاركه له ، لأتولى عملا آخر أعظم وأكبر وأخلد وأبقى ، لقد شاهدت نورا يلتمع على أبواب سبل صاعدة سامقة ، وأنني لمنطلق في إثره ، علني أظفر به .

ونظر إليه محدثه ثم أعاد البصر كرة وكرة ، لقد أذهله بل صعقه أن يسمع أن هناك من تحدثه نفسه بالاعراض عن أكبر مناصب الدولة ، وأعلى مقاعدها ، طائعا مختارا .

وقطع الشبلي عليه ، دهشته قائلا : سأحدثك بأمري ، ولك أن تظن بي بعد ذلك ماتشاء فقد اعتزمت امرا لايحول بيني وبينه غضب الخليفة أو عتب الاصدقاء .

لقد عدت من الصيد مع الخليفة ذات يوم متعبا مكدودا فلجأت إلى قصري أنشد الراحة بعد يوم حافل باللهو والمطاردة ، واستسلمت إلى نوم عميق ، ثم استيقظت فجأة ، فاذا بانوار القصر كلها مطفأة ، وثقل الظلام على صدري ، وانقبضت نفسي ، فانطلقت أصيح باعلى صوتي ، منذرا متوعدا خدم القصر ودبت حركة ضخمة محمومة في أرجاء القصر ، وأشعلت الشموع ، وأضيئت قناديل الزيت ، واملأت كل زوايا الردهات بالأضواء

ولكنني لم أر نورا ، لقد أحسست بان الظلام أشد كثافة وقتامة مما كان ، فاخذت أصيح في لهفة راعدة : نورا . نورا .

وعدت الى حجرتي مذهولا محموما . فغبابي فراشي ، وطار النوم من أجفاني ، لقد أزعجني الظلام وأخافتني القتامة التي لم تبددها الأنوار .

ولم أتم ليلتي حتى انبلج الفجر . فغادرت مضجعي ، وأخذت أجول بين أرجاء القصر بلاهدف ولاغاية ، فأخذ مسمعي صوت جميل خاشع يناجي فاطر السموات والأرضين بلحن منغم كانت آخر كلماته .

اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي روحي نوراً ، وفي عقلي نوراً وهب لي نوراً من لدنك يملأ حياتي نوراً ، يانور كل شيء ، يارب العالمين :

واقتحمت الغرفة التي ينبعث منها هذا اللحن المنير ، فإذا أحد قراء القصر ساجدا تتدفق الأنوار حوله .

وانتبه الرجل الساجد إلى ، فرفع رأسه وقال فى صوت عزيز قوى ، لك يا سيدى نهارى ، أما ليلى فهو لربى ، فكيف تتهجم على خلوتى ، انصرف غير مأمور ولا مطرود .

فصغرت نفسى وتضاءلت ، ثم صغرت وتضاءلت ، بينما كبر فى ناظرى هذا الرجل الساجد السابح فى النور .

وانبثق فى قلبى شعاع قدسى ملهم ، فعلمت سر الظلمة التى أحاطت بى ولم يبددها النور المضاء ، عرفت بغتة أننى فى حاجة إلى النور الداخلى . نور القلب والروح والايمان ، النور الذى اشرقت به السموات والأرضين ، وأصلح عليه أمر الدنيا والدين .

وعدت إلى حجرتى ، وقد رفرفت فى قلبى معان جديدة لها أنغام وأصداء ، وامتلأ الوجود حولى بانشودة جميلة عذبة حلوة .

: اللهم اجعل فى قلبى نوراً .

: وفى روحى نوراً .

: وفى عقلى نوراً .

: يا نور السموات والأرضين .

وكيف أناشده وفى النور ، وأنا أعيش فى الظلمات التى يعيش فيها الخليفة وبطانة الخليفة ، وأمرأة الخليفة ، واعتزمت أمراً :

إننى هارب من الإمارة بجاهها وظلماتها ، أنشد النور ، نور الروح والقلب والعقل والنور الذى لا يعرف صاحبه الشقاء ، لأنه نور الهدى والإيمان ، النور الذى يصل الإنسان برب الإنسان .

لقد نظر الشبلى إلى ماضيه فرآه فارغا ضائعاً تجلله الظلمات ، وتأخذ بمقوده الشهوات ! !

لقد عاش فجر شبابه كما يعيش لداته من أرباب الجاه والثراء ، منطلقاً فى عنان الدنيا لا يبالى إلا بلذة يقتنصها ، أو بصيد يطارده ، ردو بين هذا وذاك يسهم فى دسائس الحاشية ، ويحرق روحه بخوراً . وزلفى لدى سيد القصر ، وخليفة العصر الذى ترفع أصابعه وتخفض القطيع الذى يحيط به .

ولقد ظفر من دنياه بكل ما تشتهيه النفوس الترابية ، من منصب فخم ضخم وثراء عريض ، وجاه رفيع ، وأمل محدود . ولكن ماوراء كل هذا ! ؟

أيعيش الانسان حياة الحيوان يرتع فى مطعمه ومشربه ، ويزهو فى أرديته وكسائه ويتناطح ويتصادم مع أقرانه ولداته ، ثم تغرب الحياة ، ويفنى كل شىء ، وينطفىء السراج .

لئن كانت حياتنا الدنيا هى كل وجودنا ، لكانت حياة تافهة بالغة التفاهة ، تبرق لحظات ، ثم تذوى وتذبل وتفنى ، كما يفنى الضباب تحت سياط الرياح ، أو أشعة الصباح :

لقد خلق الإنسان ليبقى ، ليخلد ، ليكون فى دنياه جديراً بمولاه ، الذى طهره وزكاه ، وصاغه بيديه . ليكون خليفة على الحياة ، ورمزا لأسمى الاشراقات ، وأبهى التجليات ، وأكمل المخلوقات .

وان يكون الإنسان إنسانا إذا انفصل ما بينه وبين موجده ومبدعه جل جلاله .

إننا نملك مفاتيح السعادة ، كما نملك مفاتيح الخلود ، وإن لمسة من يدنا لتلك المفاتيح لتدفع بنا سراعا إلى الساحة الطهور الزكية ، حيث الرضا والاطمئنان والسلام ، حيث نعرف الله ونلوذ بجاه ، ونستعين بقواه ، فنعبده مهللين مسبحين مكبرين ، فإذا بكل قوى الأرض مسخرة مذللة مأمورة ، وإذا بكل الخيرات هابطة متلاحقة متتابعة .

يومئذ يتذكر الإنسان رسالته ، ويعرف غايته ، ويحدد هدفه ، ويتذوق السر المضمر فى قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

ولقد اهتدى الشبلى إلى مفاتيح السعادة والخلود ، هداه النور الذى يرسله الله لمن يشاء من عباده ويصطفى ، فأطبق بيديه عليها وأدارها بكل ما فى وجوده من قوة وعزم . فاذا به فى الساحة الكبرى مع الأئمة العارفين المهتدين .

وكان أول عمل له كما يقول صاحب تاريخ بغداد : أنه ذهب إلى مقاطعة — دماوند — فيما وراء النهر ، وكان الخليفه قد أقطعها له لمعاشه ، فقال لأهلها :

« لقد كنت صاحب أمركم ، ومالك أرضكم ، فاجعلونى فى حل من الماضى ، وقد وهبتكم الأرض وما عليها ، فأنتم أولى بها منى ، فتقاسموها بينكم بالعدل . وادعوا الله لى أن يهدينى بنوره إلى صراطه المستقيم » .

وانطلق الشبلى هاربا من أعلى مناصب الدولة بزينتها وجاهها . إلى أول درجات السالكين . ومصاحبة العارفين .

قال صاحب التبر المسبوك :

« جاء الشبلى إلى الجنيد أول سلوكه الطريق فقال له : لقد حدثونى عنك أن عندك جوهرة العلم الربانى الذى لا يضل صاحبه ولا يشقى : فإما أن تمنح ، وإما أن تبيع . فقال الجنيد : لا أستطيع أن أبيعها لك فما عندك ثمنها ، وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها .

ولكن وقد رزقت هذا العزم . فهو علامة الإذن . وبشير التوفيق . فالق بنفسك غير هياب فى عباب هذا المحيط مثلما فعلت أنا . ولعلك إن صبرت وصاحبك التوفيق أن تظفر بها .

واعلم أن طريقنا طريق المجاهدين الآخذين بقوله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فاجعل هذه الآية نصب عينك فهى معراجك إلى ما تريد . »

وألقى الشبلى بنفسه غير هياب ولا متردد فى عباب المحيط الصوفى جاهد النفسه مطهرا لقلبه مزكيا لروحه ، مستشرفا ومستهدفا ومتطلعاً إلى النور الخالد . النور الذى أشرقت به السموات والأرضين .

فكان كما يقول الشعراني « نسيج وحده جهادا وتزكية وطهرا وتوجها إلى الله » .

يقول السلمي : « كانت مجاهداته في البداية فوق الحد وفوق ما عرفنا عن السالكين جميعاً .

ويقول الجنيد : « لكل قوم تاج . وتاج قومنا الشبلي . لقد أضاء بمجاهداته تاريخنا » .

وجهاد الشبلي في الطريق الصاعد . يقدم زادا ونبراسا ومنهاجا لكل صوفي يتطلع إلى الأفق الأعلى .

لقد تجرد من كل ما تملك يداه . من متاع الحياة . وترك مجدا تتلألأ أنواره . وأقبل على مجالس العابدين يملأ آفاقهم وجدا وحباً وأنساً حتى لقب بريحانة المؤمنين .

رساله التصوف

يقول الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي :

« . . . وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة كذلك يحفظ علماء التصوف آدابها وروحها ، وكما أبيح لعلماء الظاهر الاجتهاد في استنباط الأدلة ، واستخراج الحدود والفروع ، والحكم بالتحليل والتحريم على مالم يرد فيه نص ، وترك أمره للاجتهاد والاستنباط

فكذلك للعارفين أن يستنبطوا آدابا وأخلاقا ونهجا للمريدين والعابدين . . . »